

بيان الإيمان والإسلام والاحسان

عن أبي هريرة قال: { كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بارزاً للناس، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله ومملكته وكلابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر. قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتوادي الركبة المفروضة، وتصوم رمضان. فقال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لاتراه فإنه يراك. قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بها أعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربه فذاك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رعوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا طاول رعاء البهيم في حمس لا يعلمه إلا الله، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدُهُ عِلْمٌ السَّاعَةِ} وَيُتَبَرَّلُ الْعَيْنُ وَيَغْلُمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ } إلى قوله: { إِنَّ اللَّهَ عِنْدُهُ عِلْمٌ حَيْزٌ } ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا جبريل المشهور الذي رواه مسلم فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم }. هذا حديث جبريل المشهور الذي رواه مسلم عن عمر رضي الله عنه، ورواه مسلم والبخاري عن أبي هريرة روي أيضاً عن غيرهما من الصحابة، وجمع طرقه الشيخ حافظ الحكمي في المجلد الثاني من معاج الفتاوى، وهو حديث مشهور اشتغل على أحكام كبيرة. فيه بعض الروايات أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يهابون أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض الأشياء المهمة من أمور الدين، مخافة أن يشقوا عليه ولأن الله تعالى نهاهم عن كل شرارة السؤال في قوله تعالى: { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِهِ } وفي قوله تعالى: { لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَسْيَاءِ إِنْ يَبْدُ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ يَتَّسَلَّلُ الْفُرْقَانُ تَبْدُ لَكُمْ } فلما كانوا بحاجة إلى معرفة بعض الأحكام وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد بدأهم ببعضها وقد جعلها بعضهم فتحاجون إلى من ينفهم - أرسل الله هذا القائل الذي هو جبريل عليه السلام، جاء بصفة غريبة لم يعرفه أحد، لو كان من أهل المدينة لعرفه ببعضهم، ولم يروا عليه أثر السفر لو كان جاء من بعيد لرأوا عليه آثار السفر، في بعض الروايات أنه شديد بياض الثياب، في ثياب بيضاء، شديد سواد الشعر. ثم في هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بارزاً للناس كأنه ليس في بيته وليس في المسجد، بل إما في البقيع وأما في طرف من أطراف المدينة "بارزاً للناس" حتى يروه وحتى يأتوا إليه، فجاءه هذا الملك في صورة رجل، ولما جاءه جلس عنده كمتعلم، في بعض الروايات أنه أصدق ركيبيه يركب النبي صلى الله عليه وسلم، وجلس حلة المتعلم مفترشاً كالجلوس بين الساجدين ليعلم الصحابة هيئة التعلم. بعد ذلك ابتدأ يسأل عن أمور الدين، ففي هذا الحديث أنه سأله عن الإسلام، ثم عن الإحسان، فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان بأركانه الستة المعروفة، تعرفون أن أركان الإسلام خمسية، وأركان الإيمان بستة، وأن أركان الإسلام عملية وقولية، وأركان الإيمان اعتقادية غبية، فأركان الإيمان قد أخذت من القرآن، مثل قول الله تعالى: { وَلَكُنَّ الْبَرُّ مَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَبِالْقَوْمِ الْآخَرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالْبَيْنَ } ففي هذه الآية خمسة أركان من أركان الإيمان، وكذلك في قوله تعالى: { وَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْأَخْرَ } في سورة النساء يعني: ذكر كفرهم بهذه الأركان، وكذلك في مثل قوله تعالى: { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْأَخْرَ } وهذا بيان أركان الإيمان. وال الصحيح أن الإيمان بأركان الإسلام دخلت فيه أركان الإيمان، فإذا دخلت في مسمى الإيمان، وأما في هذا الحديث فاقتصر في أركان الإيمان على الأمور الغبية: وما ذاك إلا أن الإسلام ذكر بعده؛ فلذلك يقول العلماء: إذا ذكر الإيمان وحده دخلت فيه أركان الإيمان، وإذا ذكر الإيمان والإسلام جميعاً فسر الإسلام بالأعمال الطاهرة، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة التي هي الإيمان بالغيب؛ بالمغيبات، الإيمان بالأمور الغبية أعمال القلوب، فإنه هنا ذكر أن الإيمان هو الأعمال الخفية. الإيمان بالله تعالى يعني: بأسماهه وصفاته، والإيمان بملائكته يدخل فيه الإيمان بأنهم مثل ما وصفهم الله مخلوقون يعبدون الله تعالى ويطعونه كما في قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ عَنِ الدِّينِ لَا يَسْتَكِنُونَ عَنْ عَبَادِيَهِ وَيُسْبِحُوهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } وفي قوله: { بَلْ عَيْنَادُ مُكْرَمُونَ } إلى آخر الآيات في صفاتهم، والإيمان بالكتب، الإيمان بأن الله أنزل كبياً على أسبابه وحياته، والإيمان بمنجزاته يدخل فيه الإيمان بالكتاب، والإيمان بالرسول، التصديق بأن الله أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين، ومنهم كثيراً منهم نحو ثمانية عشر، وسمى الله تعالى في سورة الأنعام بنهم في سورة الأنعام من قوله تعالى: { وَتَلَكَ حَجَّتَا آتَيْهَا إِنْرَاهِيمَ } ثم ثمانية عشر، وسمى كثيراً منهم نحو ثمانية عشر في سورة الأنبياء، نؤمن بنهم سمي الله تعالى، ونؤمن بأن هناك رسول ما فصهم الله علينا، قال تعالى: { وَرَسِلًا قَدْ قَصَصْتَهُمْ عَلَيْكَ } نصدق بأنهم مرسلون، وأنهم يبلغوا ما أنزل إليهم. الإيمان باليوم الآخر: التصديق بالبعث بعد الموت، وبما أخبر الله تعالى به من الحشر والنشر وما يكون في ذلك إلى أن يدخل أهل الجنّة، وأهل النار النار، الإيمان بالقدر: هو الإيمان بقدرة الله تعالى، وأنه على كل شيء قادر، وأنه قدر مقادير الخالق، وأنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، التصديق بذلك كله من الإيمان. فسر الإسلام بأركان الحسنة: الشهادتان: وهذا شرط لغيرهما من الأعمال؛ فإن من صلى وهو لم يأت بالشهادتين لم تقبل صلاته، أو أتي بهما ولم يعمل بهما لأن الشهادتين لا بد من القول بهما والعمل، لا بد أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن يعبد الله ويتخذه إليها حقاً، وأن يخلص له العبادة، وأن يشهد أن محمداً رسول الله وأن يتبعه ويطيعه في كل ما جاء عنه. والعمل بالصلة: أداؤها على ما وردت فيه من الصفة في القرآن والسنة، وبالزكاة: العمل بها، يعني: أداؤها لمستحقها، والصوم: أداؤها كما فرضه الله تعالى، والحج: أداؤها على ما فرضه الله، ومن شرطه الاستطاعة. فسر بعد ذلك الإحسان، وهو أعلى المراتب، وفسره بأن: تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لاتراه فإنه يراك، المرتبة الأولى: تسمى عين المشاهدة، والثانية: عين المراقبة، عين المشاهدة: هي أن تعبد الله كأنك تراه، كأنك تشاهد ربك، معلوم أن من عبد الله تعالى بهذه الحالة خضع وخشع وتواضع وأحضر قلبه ولبيه في جميع العيادات، ولم يخل بعيشه منها، أخلص لله تعالى عبادته وطاعته، فإذا لم يصل إلى هذه الرتبة فإنه يعبد الله على استحضار أن الله يراك، قال تعالى: { الَّذِي يَرَكَ حِينَ تَقُومُ وَتَعْلَمُكَ } ولا شك أن من استحضر أن الله ينظر إليه، وأن الله لا يخفى عليه منه خافية فإنه بلا شك سيحضر قلبه في عبادته، وسيحرض على كمالها: صلاة وقراءة ودعاء وذكر وصدقه ودعوة وجهاد، وأية عمل إذا استحضر أنه بم ráي ويسمع من ربه فإن ربه سبحانه يشيه ويقبل منه هذه العبادة. وأما سؤاله عن الساعة فلن يذكر الناس يكثر سؤالهم عنها، كما قال تعالى: { يَسْأَلُوكُمْ كَاتِنَ حَفْيٌ عَنْهَا } فكثير سؤالهم: متى الساعة؟ متى تأتي؟ وكذلك أيضاً يسألونه عن أماراتها ومقدماتها، يعني هذا الحديث أنه عليه تأتيكم إلا بعنة يسألونك كاتن حفي عنها } من الصلاة والسلام توقف عن الجواب وقال: { ما المسئول عنها بها أعلم من السائل } أي: كما أنك تسأل وأنت لا تعرفها فكذلك أنا لا أعرفها، كأنه يقول: لست أعلم منك بها، إذا كنت لا تعلم فأنا لا أعلم؛ حتى ينقوفا ويقولوا: علمها عند الله، كما قال تعالى: { يَسْأَلَكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلِمُهَا عَنْ اللَّهِ وَمَا يُدْرِكُ اللَّهَ بَعْدَ الْعِلْمِ } الساعات تكون قريباً } ما يدرك. أخبره بأمارتها وبعض علاماتها: إذا ولدت الأمة ربها، الأمة مملوكة إذا وطنها سيدها، ثم ولدت منه ولداً فذلك الولد ينصرف فيها كأبيه، ما دام أبوه حيا فإنه يأمرها ويستخدمها كأنها مملوكته، ربه: يعني سيدها، يعني أن يكثر استخدام أمها للأولاد لأولادهن، وكذلك يقول: من أمارتها إذا رأيت العالة الفقراء رؤوس الناس ورأيتهم يتطاولون في البنيان، بدل ما كانوا فقراء عالة يكونون أغنياء، يستقررون في البلاد، وبينون البنين، وبنفاسرون في رفعه وتشبيهه، فذلك من علامتها. { في حمس لا يعلمهم إلا الله } وهي مفاتيح الغيب، ذكرت في قول الله تعالى: { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْعَيْنِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ } ووصلت في آخر سورة لقمان: { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } أي: لا يعلمها غيره، { وَيُتَبَرَّلُ الْعَيْنُ } أي: لا يعلم متى ينزل المطر إلا الله، { وَيَغْلُمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ } أي: لا يعلم ما في أرحام الدواب وأرحام النساء ذكراً أو أثثاً إلا الله، { وَمَا تَذَرِي فَقْسُنْ مَاذَا تَكْسِبُ عَدَا } لا يعلم ذلك إلا الله، لا يدرى الإنسان أين يذهب غداً، وماذا يكتسب هل يختسر أو يربح، { وَمَا تَذَرِي تَفْسُنْ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } لا يدرى أين يأنه أجله، فأشار بذلك إلى أن من جملتها عدم العلم بوقت الساعة.